

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 11 (2011) : 274 - 294
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

التأصيل اللغوي والشرعي للمصالحة

مصطفى بن حبيب شريقن
قسم اللغة العربية وآدابها جامعة عمار ثليجي–الأغواط

مقدمة

يهدف هذا المقال إلى إبراز فضيلة الصُّلح والمصالحة باعتبارها مشروعا حضَاريًّا يحافظ على كيان الأمَّة، ويَقيهَا من فِتن التفرّق والتشرذم، تحقيقا لوصية ربِّ العالمين:

﴿فاتَّقوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَينِكم﴾

حيث خَاطبَ بها أتْقَى الأمَّة وهُم في نشوة النَّصر في يوم بدر.

ويتوسَّل لإبراز تلك المعاني بالتَّحليل اللغوي لِلَفظ المصالحة، بالرجوع إلى المادة الأصلية والتي ألفيناها لا تخرج، حيثما دارت، عن النَّماء والزِّيادة، والتناسب والتوافق والاحسان وإزالة الفَساد.

ومن حُسْن بَخْت هذه المادَّة، ويُمنها وبَرَكتها، أن يتألَّفَ منها اسمٌ لمكَّة المكرَّمة وهو (صَلاَحِ). وكفى به شرفا وبركة فهو البلد الأمين، بلد الأمان والسَّلام.

وهيَّأ هذا التَّحليل اللغوي الأذهان لتصوُّر أبعادٍ للمصالحة، ومكانتها عند العرب وشدة الحاجة إليها .. فكل تلك المعاني متَضَمَّنة منصهرة في مفهوم المصالحة.

ثم بتحليل بعض الآيات والتأمّل في السيرة العَطِرة تتجلَّى أصالةُ المصالحة في الشريعة الاسلامية، وعلوّ مقامها في نَماذِج حيّة صادقة، ومواقف عملية رائعة، تشهد بربَّانيّة هذا الدّين وإصلاحه للعالمين.

وخُتِم المقال بتفسير تحليلي مركّز للآية: 113 من سورة النساء.

ويتضمَّن هذا المقال في غُضونه وثَنَاياهُ دعوةً لانشاء خَلاَيا تتكفَّل بإصلاح ذات البين في كل قرية ومدينة، تكون بمثابة الثمرة العملية لتلك التوجيهات الربَّانيَّة.

يبدو لأوّل وهلةٍ أنّ أصالة المصالحة في الشّريعة الإسلامية أمرٌ جليّ لا يحتاج إلى برهان؛ إذ يكاد يكون مسلّمة لدى كل مسلمٍ، إلاّ أنّ التأمّل فيه، وتدبّره على قرب، يجعلك تبصر أغوارًا وتدرك أعماقًا ما كانت لتخطر بالبال لولا ذاك التأمّل كما يزيدك إلحاحا وتأكيدًا على وجوب العناية بالمصالحة والحرص عليها.

وحتىّ تنكشف لنا جوانب عديدة من المصالحة في شرعنا رأيت أن أعرِّج على المعنى اللغوي للمصالحة لصلته بالمعنى الاصطلاحي وبالحكم الشّرعي من جانب آخر وذلك بالنّظر إلى علاقة المصالحة بالمقاصد الشّرعية وبيان درجة الوجوب والتحريم في ما ورد من أوامر ونواهٍ في بعض النصوص.

كما أحاول بيان أصالتها أيضًا بالنّظر إلى صورٍ واقعيّة في السّيرة العطرة وحياة الصحابة الأجلاّء؛ إذ تُعَدُّ السيرة بمثابة الدّروس العملية، ثم أحاول إبراز المكانة المرموقة التي تبوّأها الإصلاح في شريعتنا الغرّاء.

ونقف أخيرًا عند نموذج من تلك النّصوص نتدبّره ونبرز صلته بالإصلاح والمصالحة.

تحقيق في معنى المصالحة:

قد يتبادر إلى الأذهان أنّ المصالحة والإصلاح بمعنى واحد، فيبدوان وكأنهما من المترادف؛ فقد يذكر هذا ويقصد به تلك.

لذا فمن المفيد أن نحلِّل المادّة اللغوية التي يتألف منها لفظ المصالحة.

إنها مأخوذة من الأصل ‹‹صَلَح›› بفتح اللام وهو المطّرد الأصيل، أمّا صَلُح بضمّ اللام فأشار إليه الفرّاء[1] وابن السكيت[2] وشكَّكَ فيه ابن دريد[3] وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم ‹‹وقد يقال: صَلُح كَكَرُم، إلاّ أن فيه تهمةً ››[4] .

والمصدر من ‹‹صَلَحَ›› ـ الصَّلاَحُ والصُّلُوح.

والوصف منه ـ صَالِح وصَلِيح.

والاسم ـ الصُّلْحُ (يذكر ويؤنث).

والمزيد من هذه المادة:

أَصْلَحَ ـ ومصدرها الإصلاح

و هو إزالة ما في الشيء من فساد. ولم يُسمع في العربية: صَلَّحَ تَصلِيحاً كما هو شائع اليوم.

وصَالحَ مصدرها: الصِّلاح وهو المصدر القياسي.

والمُصَالَحَةُ وهو الشائع المستعمل، واختُلِف في قياسيّته فعُدّ اسمًا للمصدر لا مصدرًا.

وتَصَالَحَ مصدرها التَّصالحُ.

والمصدر الميمي لهذه المادة هو: المصْلَحَة: وهي ما يتحقّق به الصَّلاح ويُدرأ به الفساد. وتقابلها <<المفسدة>>.

وهذه المادة (صَلَح) لا تخرج معانيها عن المعاني الآتية:

1. الصَّالح: بمعنى الكثير. تقول العرب هذه مطَرَة صالِحة[5] تمغر في الأرض مغرًا.

2. الصالح: بمعنى المناسب. الملائم تقول: هذا يَصْلُح لك وهذا لا يصلح لاستعمال كذا.

3. الإصلاح: بمعنى الإحسان أو تقديم الشيء الحسن. يقولون: أصلح إلى الدابة أي أحسن إليها[6].

4. و بمعنى الإحسان مقابل الإساءة حين يُقرن الصالح بالسيئ. كالذي ورد في قوله تعالى: ﴿ خَلَطوا عملا صَاحاً وآخرَ سَيِّئاً ﴾ التوبة / 103.

5. ومعنى الصَّلاح مقابل الفساد. وهو المعنى الأصلي المحوري للمادة وهو أظهر معانيها في القرآن الكريم: حيث تراه يُقرَن بالفساد في مواطن عديدة من القرآن الكريم:

﴿وَإذا قيلَ لهُم لا تُفسدُوا في الأرْضِ قالُوا إنَّمَا نحنُ مُصْلحون ﴾ البقرة / 11.

﴿وَاللّهُ يَعلمُ المُفْسِدَ منَ المُصْلح﴾ البقرة / 220.

﴿وَأصلِحْ ولا تتَّبعْ سبيلَ المُفْسِدين﴾ الأعراف / 42.

﴿وَلا تفسدُوا فِي الأرْضِ بعدَ إصْلاحِهَا﴾ الأعراف / 56.

﴿وَلا تُفسِدُوا فِي الأرْضِ بعدَ إصْلاحِهَا﴾ الأعراف / 85.

﴿أنَّ اللهَ لا يُصلحُ عملَ المُفسِدِين﴾ يونس / **84**.

﴿الذينَ يُفسدُونَ في الأرْضِ وَلا يُصلحُون﴾ الشعراء / **152**.

فهذه المادة كما لاحظت تدور معانيها جميعًا حول النَّماء والزيادة والتّناسب والتوافق والإحسان وإزالة الفساد. فبالصُّلح تتحقق جميع هذه المعاني وهي معانٍ شريفة مباركة؛ وممَّا يزيد هذه المادة شرفا وبركة أن من أسماء مكّة المكّرمة ‹‹صَلاَحِ››[7]؛ إذ هو اسم عَلَم على مكّة مبني على الكسر كحذَام وقَطَام، وجوّزوا صرفه.

ومن خلال التأمّل في مشتقات هذه المادة يتبيّن لنا أنّ هناك فروقًا بين المصالحة والتّصالح والاصطلاح والإصلاح والصلح، وهي الألفاظ الذي تدور كثيرا في حديثِ مَن يتناول موضوعِ الصلح والمصالحة لتقارب معانيها.

فالمصالحة مصدر من صَالحَ يُصَالِح: حاولَ الصّلح وزاوله، أو طلبه ورضي به من جانبه، أو دُعِي إليه فاستجاب له.

وهذا الإيقاع الصرفي المتمثِّل في الوزن (فَاعَلَ: صَالَحَ) يقتضي المشاركة بين طرفين أحدهما فاعل والآخر مفعول به، فإذا أردت أن يكون كلا الطرفين في المشاركة فاعلا قلت: تَصَالَحَ الفريقان وهو التَّصالح.

فإذا تمّ الوفاق والتفاهم بين الطرفين قلت عنهما: قد اصْطَلَحَا وهو الاصطلاح.

فالأولى (المصالحة) تتحقّق بالمبادرة والمباشرة للفعل من طرف واحد.

والثاني (التصالح) تعني اشتراكهما معًا في المحاولة.

والثالث (الاصطلاح) حينما يتحقق الصلح بين الطرفين. وفي الحديث: ‹‹دعوهما حتى يصطلحا››.

والإصلاح هو إزالة ما في الشيء من فساد، وهو من الفعل (أصلح)، ويكون الإصلاح بين الناس، ويتمثّل في إزالة الوحشة والنّفار والشحناء والبغضاء بين المتخاصمين المتنافرين، والمتباغضين المتباعِدَين، كالمراد في قوله تعالى:

﴿أنْ تَبَرُّوا وتَتَّقوا وتُصلحُوا بينَ النَّاس﴾ البقرة / **224**.

كما يكون الإصلاح بينك وبين غيرك كأن تطلب الصلح فيما بينكما وترضى به،

قال تعالى:

﴿فاتَّقوا اللهَ وأصلِحُوا ذاتَ بينِكُم﴾ الأنفال / 1.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدا إِصْلاحًا يوفّقِ اللهُ بينهُما﴾ النساء/35. وعودة الضمير في (إِنْ يُرِيدَا) تحتمل وجهين:

إنْ يُريدا إصلاحًا ـ المتخاصمان فيما بينهما

ـ أو الحَكَمَان اللذان يُصلحان ما بين الزوجين.

فقد قيل: إنْ يُرِد الزَّوجان إصلاحًا يوفّق الله بينهما. كما نُسِب إلى ابن عباس رضي الله عنهما: إنْ يُرِد الحكمان إصلاحًا يوفق الله بين الزوجين[8]. فَحَمَل الضميرَ في (إنْ يَرِيدَا) على الحَكَمَيْن، وهوتأويل نُسِبَ إلى عمر رضي الله عنه أيضا؛ إذ قال مرة للحكمين: إن لم يوفّق الله بين الزوجين عَلَوْتُكما بالدرة؛ لأن الله يقول: وتلا الآية. وكأني به يحثهما على إخلاص النية عندالإصلاح بين الزوجين وحَمْلُ الآية على المعنيين أَشْمل وأَوْفق، فالصّدق في أمر الإصلاح يجب أن يكون من جميع الأطراف.

وحسب الإصلاح شرفا أن يكون من مُهمَّات الأنبياء والرُّسل، يستفرغون ما في وسعهم لتحقيقه، فقد جاء على لسان خطيبهم شعيب عليه السلام:

﴿إنْ أُرِيدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطعتُ﴾ هود / 88.

والصُّلْحُ: هو الاسم المشترك الجامع لكل ما سبق وهو خير كله؛

قال تعالى: ﴿فلاَ جُناحَ عليهِمَا أن يَصَّالَحَا[9] بينهُما صُلْحًا والصُّلح خَير وأُحْضِرَتِ الأنفسُ الشّحّ﴾ النساء / 128

الحكم الشرعي:

أما الحكم الشرعي للمصالحة، فإنَّه يتبيّن جليًّا حين تعلم أنَّ تَكاليفَ الشريعة كلّها إنّما جاءت لرعاية مصالح العباد ودَرءِ الفساد فيما يتعلّق بأمر دنياهم وأخراهم[10]، والموازنة بين هذين المبدأين إذا تعارضا على نحو ما بيّنه القرآن في أمر الخمر والميسر؛ إذ فيهما إثم كبير ومنافع للناس، ولكن لمآّ كان إثمهما أكبر من نفعهما رجحت كِفّة التّحريم.

وغاية المصالح تحقيق السعَادة في الدّارين .. ولمآّ كان الأمر كذلك فإنَّ في امتثال

الأوامر الشرعية تحقيقا للمصالح قطعًا، واجتناب النَّواهي درءًا للمفاسد التي هي مصلحة أيضًا، من منظور آخر.

وعلى هذا فإنَّ المصلحة التي هي دعامة جلِّ أحكام الشرع وأساسه، هي من المادة التي يتألف منها الصلح والمصالحة ومن أصل معناها فاجتمع في المصالحة والإصلاح جلبُ المصالح ودرء المفاسد معًا.

بل يكاد يكون <<الإصلاح>> مقصدا مستقلاً من مقاصد الشريعة تصبُّ فيه أكثر العزائم والأوامر وبسببه شدَّدُوا في كثير من النواهي المفضية إلى فساد ذات البين. لا ريب أنَّ الإصلاح يحقِّق مُراد الشّرع وتركه يُفوِّت ذلك.

وتتأكّد المصلحة الراجحة أو المفسدة المعتبرة بمدى علاقتها بالكليات الخمس تحقيقا أو تفويتًا وبمدى درجة الشمول كُلِّيّة هي أم جزئية، وحسب حقيقة الوقوع، أواقعة هي أم متوقَّعة؟

والأصل في المفاسد أو المضار هو التحريم، مع العلم أنَّ الأمر بالإصلاح بين المتنازعين المتفاسدين أمرٌ على وجه الوجوب؛ فرض كفاية لقوله عزَّ وجلّ:

﴿ولْتكُن مِنكُم أمّة يَدْعُونَ إلى الخَيْر وَيأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَونَ عن المُنكَرِ وَأُولئِكَ هُم المُفلحُون﴾ آل عمران /104

وهذه الأوصاف المطلوبة تتحقّق كلها في عملية الإصلاح والمصالحة.

فإنْ تقاعس جميع أفراد هذه الأمّة عن هذا الأمر (الفرض) أَثِمُوا جميعًا؛ يأْثَمُ القادرُ على القيام بالواجب لتقاعسه، ويأْثَمُ العاجز لإهماله الحثَّ وحَضَّ من يقوى على القيام بهذا الواجب، كالذي نلحظه في تعليل القرآن حين أرجعَ السبب إلى التهاون في الأمر والحَضِّ:

﴿وَلاَ تَحُضُّونَ علَى طعَامِ المِسْكِين﴾ الفجر/20

﴿فَذلِكَ الذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ ولا يَحُضُّ علَى طَعَامِ المِسْكِين﴾ الماعون/3

﴿انَّهُ كانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ العَظيمِ ولاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِين﴾ الحاقة/34

﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُم إلاَّ مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أو إصْلاحٍ بيْنَ النَّاس﴾ النساء/113 على تقدير أو أَمَرَ بإصلاح.

ويتأكَّدُ هذا الوجوب إذا علمنا أنَّ الإصلاح هو رَاعِي أساس الأخوَّة الإيمانية، وحامي الوحدة الإسلامية، وإهمالُه إيذانٌ بتصدُّع بِنَائها وشرذَمَةِ كيانها، ويُصبح بأسُ الأمّة بينها شديدًا فيقاتل بعضها بعضًا، وتتكالب عليها الأعداء تَكالُبَ الأكلة إلى قصعتها.

فالإصلاحُ يُحقِّق مُرادَ الشَّرع؛ وهو المحافظة على الأخوة الإيمانية ورعايتها، والعمل على تنميتها وتقويتها.

وذلك أنَّ الأخوَّة معيارُ الإيمان ودليلُه، فالأخوّة والإيمان مُتلازمان، فكلّما قَوِيت الأخوّة بين المؤمنين قَوِي الإيمان، وإذا ضَعُفت ضَعُف؛

﴿إنَّمَا المُؤمِنُونَ إخْوَةٌ فأصْلِحُوا بينَ أخَوَيْكُم﴾ الحجرات: 10

‹‹المُؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا›› (11)

‹‹ المُسْلمُ أخُو المُسْلمِ ›› (12)

فإذا جفَّتْ مشاعرُ الأخوة وغاض مَعِينها، وقاتل المسلم أخاه المسلم، كاد ينتفي عنهم صفة الإيمان فقد صرَّح صلى الله عليه وسلم بذلك في مواطن عديدة:

‹‹ سبابُ المسلم فسوقٌ وقتالُه كُفر ›› (13)

‹‹ وَيلكُمْ أو وَيْحكُمْ لا تَرجِعُوا بَعْدي كُفارًا يضْربُ بعضُكُم رقابَ بَعْض ›› (14)

كما نستشفُّ هذه المعاني واضحة في تعبير القرآن عمَّا وقع بين الأوس والخزرج حين أَغرى بينهمُ العداوةَ شاسُ بن قيس، فشَرَعُوا السّلاحَ، وكادوا يقتتلونَ لولا خروجُ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فنزلت آيات واسطة آل عمران (15):

﴿ يا أيُّها الذينَ آمنُوا إنْ تُطِيعُوا فريقًا منَ الذينَ أوتُوا الكتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمانكُمْ كَافِرين ﴾ 100، حيث نجد في الآية إشارة إلى أنَّ النزاع والاقتتال يسلب عنهم صفة الإيمان ﴿ بَعْدَ إيمانكم كافرين ﴾

﴿ وَكيفَ تكفرُونَ وأنتمْ تُتْلَى عليكُمْ آيَاتُ اللهِ وفيكُمْ رسُولُه ﴾101.

تعجب وإنكار أن يُسلبَ الإيمانُ ممَّن ذَاقه، وشهِد نزول الوحي، وصاحبَ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

﴿ وَكُنتُمْ علَى شَفا حُفْرَةٍ منَ النَّار فأنقذكُمْ منهَا ﴾103

إشارة إلى العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج، المفضية إلى النار والتي أذهبها الله عزَّ وجلَّ بنبيّه محمَّد صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم.

كما يمُكن أن يُفهم ذلك من ختام الآيات لارتباطها الوثيق بأوائلها:

– ﴿ وَلا تكُونُوا كالذِينَ تفرَّقُوا وَاختلفُوا مِن بعْدِ ما جاءَهُمُ البيِّنات﴾ آل عمران/105

– ﴿ فأمَّا الذِين اسودَّت وُجُوهُهُم أَكفرتُمْ بعدَ إيمانِكُمْ فذوقُوا العَذابَ بما كنتُم تكْفُرُون ﴾ آل عمران/106. وهم الذين تفرقوا واختلفوا بعد ما جاءتهم البينات.

حيث يُفهم عند التأمّل في وجه الشّبه المنهيّ عنه في هذه الآية وصِلَتِه بسبب النزول، أنَّ التفرّق والاختلاف والتَّشرذم أخو الكفر؛ إذ عُبِّر عنه بلفظه؛ إذ تُصوِّر أوائل الآيات المدى الذي أشرف عليه الأنصار، وكادوا يَقعُون فيه، لولا لطف الله عزّ وجلّ:

﴿وكيفَ تكفُرونَ وأنتُمْ تُتْلى عليكُمْ آياتُ اللهِ وفيكُمْ رسُولُه ﴾آل عمران/101.

على وجه التَّعجُّب مِمَّن بلغَ حالُه هذا الحدّ الذي أودَى بالأمم قبلنا حين تنازعوا وتفرّقوا بعد أن جاءتهم الآياتُ البيِّنات، التي كان الأولى بهم الرجوع إليها، والاعتصام بها:

﴿ فإن تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُول ﴾ النساء / 58.

فوجهُ الشَّبَه المُحَذَّر منهُ يَتمثَّل في الوُقوعِ في الانحرافِ مع وُجود العاصِمِ الوَاقِي منه:

ففي الآية الأولى: ﴿وأنتُمْ تُتْلَى عليكُمْ آياتُ اللهِ وفيكُمْ رسُولُه ﴾101.

وفي الأخيرة: ﴿مِن بعدِ مَا جَاءَهُمُ البيِّنَات﴾ 105.

والمُلاحَظ أنّ ما عُبِّر عنه بالتفرّق والاختلاف هنا، في آخر الآيات:

﴿وَلاَ تكونُوا كالذينَ تفرَّقوا واختَلَفُوا﴾ عُبِّر عنه هناك بالكفر ﴿وَكَيْفَ تكفُرُونَ﴾؟ استعظامًا لخطر التفرّق والتنازع واستبشاعًا، وتلويحًا إلى أنَّ هذا يُفْضِي إلى ذاك؛ حيث يؤكِّد ختامُ الآيات أنَّ سبب اسوداد الوجُوه، هو الكفرُ بعدَ الإيمان؛ إذ يُقال لهُم على وَجْه التَّوبيخ: ﴿أكفرتُمْ بَعْدَ إيمانِكُم﴾ وهو نتيجة حتمية لِمَن تهاوَنَ في أمر التحذير الذي افتُتِحَت به الآيات:

﴿انْ تُطِيعُوا فريقًا مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكتابَ يَرُدُّوكم بعْدَ إيمَانِكُمْ كَافِرين﴾

ويحقّ عليه ذلك التوبيخ المخزي يوم القيامة فيُقال لهم:

﴿أكفَرْتُم بعْدَ إيمَانِكُم فذُوقُوا العَذابَ بمَا كُنتُمْ تكفُرون﴾ 106

وفي المقابل تُرشِد الآيات بين ذلك إلى أنَّ المصالحة والتآلف وزوال العداوة نعمةٌ سابغة، ورحمة واسعة، يَجِد فيها المؤمن طَعْم الإيمان، عليه أن يشكُرَها ويذكرها

﴿وَاذكرُوا نعمَةَ اللهِ عليكُمْ إذ كنتُمْ أعدَاءًا فألَّفَ بينَ قلوبكُمْ فأصبَحْتُم بنِعْمَتِهِ إخْوَانا﴾ آل عمران/103.

إنها نعمة مكفُورة قليل من يتفطّن إليها فيشكرها.

فهل بعد هذا يصحُّ أنْ يُتَلَكَّأ في أمر المصالحة والمؤالفة أو يُتردّد ؟

على أنَّه يحسن أن نُشير هنا إلى أنَّ تسمية تلك العداوة وذلك التنازع بين المسلمين كفرًا هو على الوجه اللغوي لا الشّرعي؛ إذ لا يَنْتَفِي على الفِئتين المتقاتلتين اسم الإيمان[16]، ولا يُعاملون معاملةَ الكفّار، كما هو مشهور في كتب الفقه في أحكام البغاة وقتال أهل التأويل؛ لا يُلحَق مُدبرهم، ولا يُجهَز على جريحهم، ولا يُقتل أسيرهم، ولا يطلب هاربهم، ولا يُقسم فَيْؤُهُمْ على خِلافٍ في التفاصيل... إذ تُفيد آية الحجرات – وهي تتحدّث عن الفئة الباغية – أنَّ البغي لا يزيل عنهم اسمَ الإيمان – وإنْ كان خطرًا عليه – فسَمَّاهم إخوةً مؤمنين مع بغيهم فقال:

﴿إنَّما المُؤمِنُونَ إخوةٌ فأصلِحُوا بينَ أخَوَيْكُم﴾ الحجرات / 10

وقد سُئِل علي كرَّم الله وجهه عن الباغين الخارجين عليه: أكفَّارٌ هم ؟ قال: هُمْ مِن الكفر فَرُّوا. قالوا: أمُنَافِقون؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون اللّهَ إلاَّ قليلا. وهم مداومون لذكره. قالوا: فما تسمِّيهم ؟. قال: إخواننا بَغَوا علينا [17].

وإنَّما سُمِّيَ ذلك كفرًا تنفِيرًا للمؤمنين من تلك الصورة البَشِعة التي هي أبغضُ ما يتصوَّره صاحبُ إيمان. تأمَّل – إن شئتَ –كيف أنَّ التعبير يبرز صفة الإيمان وهي تتعرَّض لخطر الكفر، تنبيها إلى ضرورة التشبُّث به لصيانته:

﴿يا أيُّها الذِينَ آمنُوا إنْ تُطيعُوا فريقًا منَ الذِينَ أُوتُوا الكتابَ يَرُدُّوكُم بعدَ إيمانِكُم كافِرِين ﴾ 100.

ولعلَّ في الآيات السابقة لآية اقتتال الطائفتين في سورة الحجرات ايماءً إلى هذه الحقيقة وتمهيدًا لما يَرِد بعدها؛ وذلك في قوله تعالى:

﴿ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إليكُم الإيمانَ وزَيَّنهُ في قلوبكُم وكرَّهَ إليكُمُ الكفْرَ والفسُوقَ والعِصْيان﴾ الحجرات/7.

فشِدَّة تعلّق النفوس بالإيمان حِين تَجِد القلوبُ طعمه، تقابِل شدَّة كرهها للكفر وبُغضِه، وهو الشعور الوَاقي من الوُقوع في التنازع المُفضي إلى الكفر لقوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: << سباب المسلم فسُوقٌ وقِتاله كفرٌ >>

فطعمُ الإيمان يتولَّد عنه بغضُ الكفرِ والفسوق والعصيان، على الترتيب فيما ورد بعدها في الآيات حيث فُصِّل المجمل:

1. كَرَّهَ إليكم الكُفْرَ يناسبها بعدها اقتتال الطائفتين المؤمنتين:

﴿وَإنْ طَائفَتانِ مِنَ المؤمنِينَ اقْتَتلُوا﴾

2. والفسوق مناسب لما بعد ذلك: وهوالنهي عن السخرية والسِّباب والتنابز بالألقاب << بئس الاسم الفسوقُ بعد الإيمان >>

وقال صلى الله عليه وسلم: << سِبَابُ المؤمن فسُوق >> وهو يفضي إلى العداوة والتنازع وبالتالي إلى الاقتتال؛ لأنه يُوغِر الصّدور شحناء وبغضاء.

3. والعصيان ويناسبه بعده النهي عن الظنّ والتجسّس والغيبة، وهذه قد تؤدِّي إلى العداوة والبغضاء والاقتتال إذا وجدت نَمّامًا قتّاتًا فتّانًا.

وهذه جميعها مرتبطة بالإيمان إيجابًا وسلبًا، قوة وضعفًا؛ إذ الحكم القاطع ﴿إنَّما المؤمنُونَ إخْوَة ﴾ وهو أمر متفرع عن النداء بالإيمان في مُفتتح السورة: ﴿يَا أيُّهَا الذِينَ آمَنُوا﴾ وتكرَّر فيها خمسَ مرَّات على قصرها، فكان ذلك النداءُ بمثابة مرتكزاتٍ لقضايا السُّورة، حتَّى يتحقَّق الرُّشد والرَّشاد الذي هو الاستقامة على طريق الحقّ مع تصلّبٍ فيه ﴿أولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون ﴾

وتُختَتَم السُّورَة ببَيَان المُؤمن الحقّ ذِي الإيمان الرَّاسخ، لا يشوبه شكٌّ ولا فُتور:

﴿ إنَّما المُؤمنُونَ الذِينَ آمنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لمْ يَرْتابُوا ﴾ الحجرات/15.

ولقد كانت سيرة النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصحبه الأخيار ميدانًا فسيحًا في تطبيق الإصلاح والمصالحة.

فقد أصلح اللهُ تعالى بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بين أشراف قريش قبل أن يُبعث، حين اختلفوا في مَن يَضعُ الحجرَ الأسود في موضعه من البيت العَتيق، وتَنَازعوا حتَّى كادت تنشبُ بينهم حربٌ، ودام الخِصَامُ أربعَ ليالٍ لا يهدأ، ثُمَّ رضخوا لرأيِ أبي أميّة بن المغيرة المخزومي (عمّ خالد بن الوليد) الذي أشار عليهم أنْ يُحكِّموا أوَّلَ داخل من باب شيبة، فكان هذا الداخل محمَّدا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: هذا الأمينُ رَضينا به حكمًا.. فبسط الرِّداء ووَضعَ الحجر الأسود عليه وقال: ليأخذْ كلُّ سيِّد منكم بطرفٍ مِن الثَّوب، ورفعوه، فلمَّا حاذَى مكانَ الحجر تناوَلَه بيده، ووضعه في مَحَلِّه [18] وهكذا حسمَ الخلاف الذي كثيرًا ما يؤدي إلى حروب طويلة المدى.

فَالإصلاح فنٌّ راق يحتاج إلى صبر وتأنّ وذكاء؛ إذ لابُدَّ في الإصلاح من أخْذ أطراف القضيَّة جميعها بعين الاعتبار، وتهيئتِها للقَبُول، حتى تخضَع العقول، كما فعل الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين بسط الرِّداء ليأخذ القومُ بأطرافه.

كما أصلح اللهُ به بين الأوس والخزرج مرارًا، وقد سجَّلت سورة آل عمران مَوقفا من ذلك كان له أثر عميق في نفوس من شَهِده، وهاهو جابر بن عبد الله يصوِّر لنا جانبا من تلك المشاعر الجيّاشة المتباينة حين طلع عليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقد غَلت مراجلهم غيظًا، وحَمِيَت أنوفهم غضبًا فيقول:

«ما كان طالعٌ أكْرَهَ الينا من رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأَوْمأ إلينا بِيَده فكَفَفْنَا وأصلح اللهُ ما بيننا؛ ألقوا السّلاح وعانق بعضهم بعضًا، وجعلوا يبكون.

فما كان شخصٌ أحبَّ إلينا من رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

فما رأيت يوما أقبحَ ولا أوْحَش أوّلاً، وأحسنَ وآنَسَ آخرًا من ذلك اليوم» [19].

لو لم يَكُن في التنازع والتباغض والعداوة إلاَّ هذا الذي وقع في أول اليوم لكفى شرًّا؛ أرأيت كيف انقلب الحقُّ فيه باطلاً والحَسَنُ قبيحًا، ومطلعُ الحبيب مكروها [20] في قلوبٍ امتلأتْ غيظًا وحِقدًا.

ولو لَمْ يكن في التّصالح والمصالحة إلاَّ ما وقع في آخر ذلك اليوم لكَفَى؛ إذ

نزلت الرَّحمة فانكشفَ الغيظ وتدفّقت المحبّة في شعاب القلوب، حقًّا إنَّ الأخوّة رحمةٌ والفُرقة عذاب.

وأمَّا صُلحُ الحديبية فحدِّث عنه ولا حرج، فقد فاضَ خيرًا وتدفّق بركةً على الإسلام والمسلمين حتَّى قال عنه أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه:

<< ما كان فتحٌ في الإسلام أعظمَ مِن فتح الحديبية >> [21]

كما بادر صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى إصلاح ما تَسَرَّب إلى قلوب الأنصار وملأ صدُورَهم لَمَّا قُسِّمت الغنائم بعد غزوة حُنين، فما تركهم حتَّى عادت القلوبُ إلى أصفى ما كانت عليه .. وهكذا كان شأنُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الإصلاحَ وجَبْرَ القلوب.

وكان لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه مع الأنصار موقف مُشابهٌ، وذلك لمّا جاءه مالٌ من البحرين واقتدى بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاهْتدى إلى إصلاح ما كاد يَفسُد.

كما رضي علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالتَّحكيم لمَّا دُعي إليه جُنوحًا إلى الصُّلح. كما أرسل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لمحاورة مَن أنكر مبدأ التَّحكيم والتَّصالح. وأطفأ اللهُ بالحسن بن علي رضي الله عنهما فِتنًا لا يعلم مَدَاها إلاّ اللهُ حين صالحَ معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وقد نَوَّهَ النَّبي صلى الله عليه وسلم بهذا الصُّلح من قبلِ أن يتحقّق بأكثر من ثلاثين سنة حين قال عن سبطِهِ الحسن: << إنَّ ابْني هذا سيِّدٌ ولعلَّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين >> [22].

والإصلاح بين الخصوم ورأْبُ ما تصدَّع بينهم من أولويات الشَّريعة الإسلاميَّة، وأوْكدِ عزائم الدِّين. وما شرعَ اللهُ عزَّ وجلَّ حرمةَ البيتِ الحرام، والشهر الحرام، إلا توطئةً للصُّلح، في هدأةِ الهُدْنَةِ، واتاحةً لِفُرَصِ السِّلم والأمانِ، بِاعتبار الزَّمان والمكان؛ فإنَّه مَن لم تَضُمَّه رحابُ المسجدِ الحرامِ حاصَرَهُ زمانُ الشهرِ الحرامِ، فلا مناصَ مِن الهدنة للقَاصي والدَّاني.

فالإصلاح حِسٌّ حضاريّ كلّما تقدَّمت الإنسانية شعرت بشدّة الحاجة إليه. إنَّه صمّام الأمان لحياة الأمم والجماعات، وقد ذاقت البشرية قريبا آثار النّزاع وسوءَ التّفاهم الذي أدّى إلى حربين عالميتين خلال ربع قرن .. ففكَّر عقلاء العالم وحكماؤه فأُنشئت هيئة الأمم لحفظ السَّلام العالمي.

وهذه الدّعوة الانسانية كان الإسلام من السبّاقين إليها فقد شَرَّع للإصلاح ورغَّبَ فيه ودعا إليه، وأعلى مقامه الى درجات سامِقَة يلمحها جليةً مَن يتأمّل الأحاديث والآثار الآتية:

1. عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:
<< ألا أُخبركم بأفضل من درجة الصِّيام والصَّلاة والصَّدقة ؟ قالوا: بلى. قال: إصلاحُ ذات البين فإنّ فسادَ ذاتِ البين هي الحالقة. >>

2. وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: <<يا أبا أيوب ألاَ أَدُلّك على صدقة يحبُّها الله ورسوله ؟ تُصلحُ بين النَّاس إذ تباغضوا وتفاسَدوا>>

3. وقال محمد بن المُنكَدِر: تنازع رجُلان في ناحية المسجد فمِلتُ إليهما فلم أزل بهما حتَّى اصطلحا، فقال أبو هريرة وهو يراني: سمعت رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يقول: <<من أصلح بين اثنين استوجبَ ثوابَ شَهِيد >>

4. وعن أنس ﷺ أنَّه قال: <<مَن أصلح بينَ اثنين أعطاهُ بِكلِّ كلمةٍ عِتقَ رقَبة>>

5. وعن الأوزاعي: << ما خُطوةٌ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن خُطوة في إصلاح ذات البين. ومَن أصلح بين اثنين كتبَ اللهُ له براءةً من النّار >>

ويكفيك دلالة على فضل الإصلاح وبركته أنَّه الدِّرع الواقي والعلاج الشَّافي من البغضاء والضَّغائن والأحقاد التي تعصف بالأمم وتؤجِّج الفتنَ وتذهبُ بِطِيب العيش، حتَّى تردِّد النُّفوسُ مع القائل:

حبّذا العيشُ حِين قومي جميعُ   لَمْ تفرّقْ أمورَهم الأهواءُ

لذلك رُغِّب في الرُّجوع إلى المصالحة حتَّى في القضايا التي بتَّ فيها القضاء بالعدل؛ فقد كتب عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه: << رُدَّ الخصوم حتىَّ يَصْطَلِحُوا فإن فصل القضاء يورِثُ بينهم الضَّغائن >>.

ومن أعظم الدَّلائل – أيضًا – الترخيصُ في الكذب من أجل الإصلاح، مع شِدَّة تشنيع الإسلام على الكذب والكذّابين، وأنَّه ليس من صفة المسلم الكذبُ البتَّة، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: << كلُّ الكذب على النّاس لا يحلّ إلاّ ثلاث خصال؛ رجلٌ كذب على امرأته ليُرضيها، ورجلٌ كذب بين رَجُلين ليُصلح بينهما، ورجلٌ كذب في خديعةِ

حرب>> رواه الطبراني.

وعن أمّ كلثوم بنت عقبة (زوجة عبد الرحمٰن بن عوف وأخت عثمان لأمّه) أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: << ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين، فقال خيرًا ونَمى خيرًا >> رواه الأربعة: البخاري ومسلم وأبو داود والتّرمذي.

وفي مثل هذا المقام قال أمير فارسي لوزير له:

كذِبُ هذا خيرٌ من صدقك. لما يترتب على صدقه وصراحته من مفاسد.

ذلك أنَّ هذا الوزير أوغرَ قلبَ الأمير بكلام صدَقَ فيه. بعد أن انشرحَ صدره بكلام وزير آخر حيث أدخل عليه السُّرور بقصَّةٍ اختلقها ليصفحَ عن الجاني.

وأعظَمُ ما يُظهر مكانة الإصلاح هو ما ورد منه في القرآن الكريم، ومِن أبرز المقامات التي تبوَّأ فيها الإصلاحُ مكانًا عليًّا في كتاب الله ما جاء في الآية **113** من سورة النساء حين ورد ضمن أعمال من البرّ عليها مدارُ أبواب الخير.

لذلك رأينا من المناسب أن نتأمّل هذه الآية الكريمة لنتبيّن مدى تفاعل إصلاح ذات البين مع أصول أعمال البرّ الأخرى، ومتى يحقق ثمارَه اليانعة ذات القطوف الطيبة: وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿لا خيرَ في كثيرٍ من نجْوَاهُم إلاّ مَن أمرَ بصدقةٍ أو معْرُوف أو إصْلاَح بيْنَ النَّاس ومَن يَفْعل ذلكَ ابتغاءَ مَرضَاة اللهِ فسَوْفَ نُوتيهِ أجْرًا عَظِيما﴾ النساء/**113**

﴿لا خير في كثير من نجواهم ﴾: نفى الخيرَ عن أكثر النجوى، ليُلفت الأنظار إلى ما في النجوى من عظيم البلْوَى، فأكثرها شرّ محضٌ، ولا يسلمُ منها إلاّ القليل النَّادر.

وعلى هذا فالنّجوى صنفان:

1. نجوى بالإثم والعدوان، وهي أكثر النجوى انتشارًا بين الناس.
2. ونجوى بالبرِّ والتقوى، وهي القليلة النَّادرة تختصُّ بالنّخبة الصَّالحة.

والنَّجوى هي المُسارَّة بين اثنين أو أكثر إذا خَلَوْا بأنفسهم وانفردوا بحديثهم، وقد تكون بحضرة غيرهم غير أنهم يُخفِتُون أصواتهم .. وهو الذي نَهَى عنه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « لا يتناجَى اثنان بينهُما ثالث »، وذَمَّ الله به المشركين وهم بحضرة النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ﴿إذْ

يستَمِعُون إلَيْك وإذْ هُم نجوى إذْ يَقُولُ الظَّالمون إن تتَّبعون إلاَّ رجُلاً مسحُورًا﴾ الإسراء/47.

فآية النساء تصوِّر فسادَ التَّناجي وخلُوَّه من الخير إلاَّ نادرًا، وتُقرِّر قاعدةً للسَّلامة والبراءَة من شرِّ النَّجوى بالعبور إلى خيرها وذلك حين تحقّقُ النَّجوى واحدًا على الأقلّ من أصول البِرّ والخير التي هي:

1. **الحثّ والحضّ على الصدقات**
2. **إحياء معروفٍ أوشَكَ أن يغيض**
3. **إصلاحٌ بين النّاس**

فإذا اجتمع الثلاثة اجتمع الخير في نجوانا، وإذا خلَتْ منها صارت نجوى، حتّى كأنَّ النجوى العارية من هذه الثلاثة لا خير فيها على الإطلاق ﴿وإذْ هُم نَجْوَى﴾. لأنّه لا يُعقل بين أهل الإيمان أن يكونَ اجتماعٌ ولا خير، ولقد ذمّ عمر رضي الله عنه نفرًا:

بئسَ هذه الوجوه التي لا تجتمع ولا تُرى إلاَّ في شرّ ...

وقد اقترنت النجوى التي لا خير فيها بالمنافقين في معظم المواضع من القرآن.

فالمجتمع المسلم السَّوِيُّ بريءٌ من هذه الظاهرة.

وفي المقابل ما أروع أَنْ يجتَمِع الرجلان فيقول أحدهما للآخر[23]: تَعَالَ نتصدَّق على تلك الأرملة ونكرِمْ ذاك اليتيم ونُطعمْ هذا المسكين ...

وهَلُمَّ إلى معروف نحييه ... وهيَّا نُصلحْ بين أخوينا ...

فيحيا الخير والبرّ بأمثال هؤلاء، وتسري في جسد الأمّة صحوةٌ وصحّة وعافية من حيث لا تشعر.

ذلك أنَّ أكثر تناجي النَّاس – فيما يتَّصل بغيرهم– شرٌّ لا خير فيه، لأنَّ الإنسان مجبول بطبعه على إظهار الخير[24] وإخفاء الشر تزيُّنا وتظاهرًا.

ومِن هُنا كان كلُّ تناجٍ يَخشى صاحبُه إظهارَهُ ويكرهُ الاطلاع عليه شرٌّ لا بِرَّ فيه... إلاَّ فيما كان إسرارُه تقرّبًا لله عزَّ وجلَّ وتخليصًا له من الرياء وقَليلٌ ما هو.

وبذلك يتبيّن لنا أن التناجي الذي تُرشد إليه الآية وهو المستثنى من حقل

التناجي الواسع العريض هو أندر في واقع الناس من الكبريت الأحمر حيث التناجي بالبر والتقوى والإصلاح. ومع ما في النفوس من ميلٍ إلى إظهار مثل هذه الأعمال الصَّالحة فانَّه يسلُكُ بها صاحِبُها سبيلَ الإخفاء والتناجي والستر حرصًا على بلوغ الأعمال غايتَها وتحقيقًا لثمرتها وثوابها.

ذلك لأنَّ التناجي بالصَّدقة والإحسان إلى الفُقراء والمساكين يُخلِّص الصدقات من آفة المنِّ والأذَى فذو الحاجة حريص على ما يستر حاله حتّى أنَّه ﴿ يَحْسِبُهم الجاهِلُ أغنياءَ مِن التَّعَفُّفِ ﴾

وهكذا يصبح حديث هؤلاء المحسنين مناجاةً كأنّه حديث إخوة السَّرار.

وكذلك يفتقر الأمرُ بالمعروف إلى السِّتر والإخفاءِ لأنَّه قد يكون في إظهارِهِ إيذاءٌ للمأمور وإحراج له وتشهير به، وقد يدفعه إلى الإصرار على ترك المعروف ومخالفته عنادًا، وأنه من سنن طبائع النفوس النَّفْرةُ من النَّصيحة العلنيّة لما فيها من التَّشهير والاستعلاء، وقد يُتوهّم فيها النّقد والاستصغار والتحقير. قال الإمام الشَّافعي رحمه الله:

‹‹من وعظ أخاه سِرًّا فقد نَصَحه وزَانَه، ومن وعظَ أخاه علانية فقد فَضَحه وشأنه›› [25] ولذلك قالوا: من أمر أخاه على رؤوس الملأ فقد عَيَّره [26]

وكان الفضيل رحمه الله يقول: ‹‹المؤمن يسترُ وينصح، والفاجِر يَهتِك ويُعيِّر›› [27]

وكذلك الأمرُ بالنّسبة للإصلاح بين الناس فإنَّ عدم إفشائِه يضمنُ الوصول إلى الوِفاق وحسم الشِّقاق؛ لأنَّه قد يكون في إفشائِه وإظهاره كشفٌ لأسرارِ الناس وعورات البيوت، فيحجُم أصحابُها عن قبول الإصلاح مُطلقًا؛ وقد يهيِّءُ إظهارُه فُرصةً لأهل الفِتن المشَّائين بالنَّميمة والإفساد بين الناس. ليُقوّضُوا المساعي الخَيرِية بوسائلهم الشيطانية فلا يتحقّق المرغوب...

ما أحوجَ الأمَّةَ اليوم إلى إحياء مثل هذا التناجي الحضاري السَّامي.

ويُلاحِظ المتدبّر في هذه الآية أنَّ الأمرَ بالمعروف عامٌّ يشمل أبواب الخير والبرّ غير أنَّه خُصِّصَ من طَرَفَيْه بذكر الصَّدقة أولاً لِدفعِ شرور الفقر والحاجة، وبالأمر بالإصلاح آخرًا لما فيه من الوقاية من شرّ التّنازع والاختلاف والعداوة وتحقيق مصلحة الأمان والسلام.

ذلك أن الطعام والأمان كليهما دعامةُ الاستقرار والاستمرار، ولطالما قَرَن بينهما القرآنُ ودعَت إليهما السُّنة في نحو قولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ‹‹أيُّها النَّاس افشوا السَّلامَ، واطعموا الطَّعام, وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا والنَّاس نيام، تدخلوا الجنَّة بسلام››

وفي الإشارة إلى الصلاة بالليل والنَّاس نيام دليل على أنَّ هذا العامل يُخلِص عمله لوجه الله تعالى في الإطعام وإفشاء السَّلام وصِلة الأرحام تمامًا مثل الذي ترشد إليه الآية التي نتدبّرها: ﴿ومَن يفعل ذلكَ ابتغَاءَ مَرْضَاةِ الله فسوف نوتيه أجرًا عظيمًا ﴾

وقد يكون تأخير الإصلاح عند إيراد هذه الثلاثة ﴿ أمرَ بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ ليس لتدنِّي مرتبة الإصلاح بينها، وإنّما على سبيل التَّرقِّي؛ لأنه ليس بمقدور جميع الناس من العامّة كما هو شأن الصدقة مثلاً، وإنَّما تقتضي صنفًا مميّزا لهم منزلة اجتماعية وقُدرة بيانية ولطافة ربانية فيقوم بمهمّة الإصلاح الخطباءُ وأهل الذكر وأولوا الأمر ثم سائر الأمّة، ومن لم يتيسّر عليه الاصلاح أمَر به وحثَّ عليه كما ترشد الآية فيصبح أمرُ الأمَّة إصلاحًا أو أمرًا بالاصلاح.

ثمَّ لعلوِّ مقام الإصلاح في الدِّين لقولهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « أَلاَ أخبركم بأفضل من درجة الصّيام والصَّلاة والصَّدقة ؟ قالوا: بلى قال: صلاحُ ذاتِ البين، وفسادُ ذاتِ البَيْن هي الحالقة. وفي رواية: لا أقول تحلقُ الشَّعر، ولكن تحلق الدِّين» رواه أبو داود والترمذي.

ولماَّ كان إهماله خطرًا على الدِّين جعل الإصلاح بين طوائف المسلمين وجماعاتهم أمرًا لازمًا يُحمَلون عليه بالقوّة محافظةً على كيان الأمَّة وقوَّة بنائها.

وجَعْل الإصلاح هُنا بين الناس ‹‹أو إصلاحٍ بين الناس›› على وجه العموم ليس له عنوان إلاّ الإنسانية. لا يفرّق في ذلك بين كافر ومؤمن [28] وأحمر وأصفر وأبيض وأسود فهو من الحقوق الإنسانية بل إنَّ التَّحريش والتَّهييج بين الحيوان منهيٌّ عنه لما فيه من إذاية الضَّعيف وتعذيبه، وهذا لتحقيق معنى من معاني اسم الله الأسنى ‹‹ السّلاَم ››.

ومدارُ تلك الأعمال كُلِّها يلخِّصُه تذييلُ الآية:

﴿ومَن يفعل ذلكَ ابتغاءَ مَرْضَاة اللهِ فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا﴾

فوراءَ كلِّ عملٍ النيّةُ والقَصْدُ، فَذَاكَ وحدَه يُثمِّن الأعمال الصَّالحة ويرفَع درجاتها ويُضاعف ثوابها.

ونلاحظ أنَّ الآية زَاوجَت بين الأَمْر بهذِه القُربات وبين فعلِها مُمارسة: ﴿ إلاَّ مَن أَمَرَ... ومَن يفعل ذلك) فإنْ كان هذا ثواب الآمِرِ بِهَا المرشِد إليها؛ إذ الدَّالُ على الخير كفاعله، فما بَالُك بمَن يفعله ويزاوله ﴿ ومَن يفعل ذلك... ﴾ يفعل الأمْرَ أو يفعل المأمور به (29) .. بَيْدَ أنه يُشترط أن يكون الأمرُ أو الفِعل خَالصًا لوجه الله تعالى ابتغاءَ رضوانه.

إنَّ هذا الشرط النّفيس يُنَمّي في النفوس فِطرة الخير، ويؤصّل الشّعور به فيجعله ثابتًا لا يَريم ولا يتزحزَح لأنه موصُول بالباقي؛ حيث تتجرّد النفسُ عن الحظوظ العاجِلة ويَضْحى الخيرُ جبلَّةً لا يقترن بمدح الناس ورضاهم، ولا مخافة ذمّهم، فَلاَ يُخشَى عليه الفتورُ والانقطاع حين تتغيّر الأسباب والدواعي.

ويتناغَم هذا المعنى الذي ذُيِّلَت به الآية وهو ابتغاء مرضاة الله، مع مُفتتح الآية وهو التناجي؛ إذ بُني أساسهما على التستُّر والإخفاء غير أنَّ الأوَّلَ في أصله وعمومه شرّ لا خَير فيه، وإن الثاني خيرٌ محض لا شَرَّ فيه.

ذلك أنَّ الإخفاء مِن أجل مرضاة الله صفاءٌ و نُور، وإنَّ التستُّرَ في التناجي ريبةٌ وشرورٌ.

غير أنه لم تنته الآية، حتى عانقت البدايةُ النهايةَ، فَسَلِمَ أَوَّلُها لاتّصاله بآخرها.

وهكذا نَرَى في شرعنا أدبًا عاليا ينظّم النجوى ويُهذِّبها ليَقِيَ من شرورها؛ إذ هي من حبائل الشيطان ومكايده ﴿إنَّما النَّجْوَى من الشَّيْطَان ليُحزِنَ الذينَ آمنُوا ﴾ المجادلة/9

وهي مَرْكبٌ كثيرًا ما يمتطيه المنافقون ﴿ ألم ترَ إلى الذِين نُهُوا عن النَّجوى ثمَّ يعودون لما نُهُوا عنه ﴾ المجادلة/ 8

ومِن أطيب ثِمارِ النجوى الناجية المهذَّبة: الإصلاحُ بين النَّاس ابتغاء مرضاة الله فيتعدَّى صلاحُ الفردِ إلى إصلاح غيره، فتَراه يعملُ دائبا على تهيئة جوّ الإصلاح فيُوطِّئ لعوامل الالتقاء، ووسائل التَّفاهم ويُرغِّب في نسيان بوادر الخلاف، ويتجنّب إثارتَها حتى لا تنشط الفتنةُ من جديد وتُبعثَ جَذَعةً، فالفتنة نائمة لعَنَ الله موقِظها، ونارٌ لعنَ الله موقِدَها.

ويُعِين الشَّارِعُ المُتصالِحين على أهواء النفس ومكايد الشيطان فقد تُزيِّنُ الأمَّارةُ بالسُّوءِ ويُوسوِسُ اللَّعِين؛ أنَّ المبادرةَ إلى الصلح والرِضا به، مظهرُ ضعف وموقِفُ ذُلّ يدلُّ على العجْزِ، أو هو تراجعٌ عن مبادئ، وتنازل عن حقّ، أو تخلٍّ عن نُصرة القَوم وخيانة للأسلافِ كما هو الظَّاهر في قضايا الأخذ بالثأر والذُّحُولِ ... فنفَى الله عزَّ وجَلَّ التحرُّج

والحرَجَ مِمَا يَحُوكُ في النَّفس ويتحشرج في الصَّدر من جرَّاء المبادرة إلى الصُّلح، فرفع الحرج، وَضمِن عَاقبته بأنَّها خيرٌ كلُّه فقال:

﴿فَلا جُناحَ عليهما أن يَصَّالَحَا بينهما صُلْحًا والصُّلْحُ خير ﴾ النساء /128

وختامًا فما أروع وأجْدَى – حتى يكون القول عمليًّا – أن تنهض من كلِّ فرقةٍ طائفةٌ مِن المؤمنين بمهمَّة إصلاح ذات البين تَرُبّ ما انصدَع بين الأفراد والجماعات، وتُصلح ما فسد بين الإخوة على أساسٍ من البرِّ والتَّقوى، لا يبتغون بذلك حمدًا ولا ثناءً إلاّ رضوانَ اللهِ الأكبر: ﴿ومَن يفعل ذلكَ ابتغاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فسَوْفَ نُوتِيهِ أجْرًا عَظِيمًا﴾.

الهوامش:

1)- أنظر: مختار الصحاح، للشيخ الإمام محمد ابن أبي بكر عبد القادر الرازي (ت 760 هـ)، عني بترتيبه محمد خاطر، دار المعارف، بمصر، ص 264.

2)- مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس (395 هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، اسماعيليان نجفي (د. ت)، إيران، ج 303/3.

3)- قال ابن دريد: (وليس صَلُح بثبت)، أنظر لسان العرب، ابن منظور، مادة صَلَح، (د. ط. ت)، دار صادر، بيروت، ج 2/ 516.

4)- معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ج 2/ 80.

5)- لسان العرب، ابن منظور، ج 2/ 516.

6)- المصدر نفسه، ج 2/ 517.

7)- أنظر: مقاييس اللغة، ج3/ 309. ولسان العرب 517/2. وأنظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير (606 هـ)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، (د. ط. ت)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ج 46/3.

8)- أنظر: الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج5/ 175.

9)- يُصْلِحَا: قراءة الجمهور: مصدرها الإصلاح.

يَصَّالحا: قراءة نافع مصدرها التَّصَالُح.

يَصَّلِحَا: قراءة الجحدري (أي يصطلحا) مصدرها الاصطلاح.

10)- أنظر: بعض المؤلفات في المقاصد وقواعد الأحكام مثل:

1. البرهان في أصول الفقه، لأبي المعالي إمام الحرمين الجويني (ت 478 هـ)، حققه د. عبد العظيم الديب، ط3، 1421هـ / 1992م، دار الوفاء للطباعة.

2. المستصفى من علم الأصول، لأبي حامد الغزالي (505 هـ)، ط1، 1356هـ/ 1937م، المكتبة التجارية الكبرى.

3. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (ت 660 هـ)، راجعه وعلَّق عليه طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل.

4. الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي (790 هـ)، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر.

5. مذكرة أصول الفقه، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، على روضة الناظر للعلامة ابن قدامة، (د.ط.ت)، الدار السلفية، الجزائر.

6. ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، ط4، مؤسسة الرسالة، 1402هـ / 1982م.

7. مقاصد المكلّفين فيما يتعبَّد به لربّ العالمين، الدكتور عمر سليمان الأشقر (رسالة دكتوراه في الفقه المقارن)، ط (2)، (د.ت)، دار النفائس.

8. درء المفسدة في الشريعة الإسلامية، للدكتور محمد الحسن مصطفى البغا، ط 1، 1997م، دار العلوم الإنسانية، دمشق.

11)– حديث متفق عليه.

12)– حديث متفق عليه.

13)– حديث متفق عليه – أنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة عيسى بابي الحلبي، (د. ت)، حديث رقم 43، ج1/13.

14)– المرجع نفسه، الحديث رقم 44، ص 14.

15)– أنظر سبب النزول مفصّلا في: الدر المنثور في التفسير المأثور، للسيوطي، دار الفكر، بيروت، ج2/ 278. وأنظر أيضًا: الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، للدكتور يوسف القرضاوي، (د. ت. ط)، ص 28.

16)– أنظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 16/323. وأنظر: غرائب القرآن، للقمي، ج 26/ 64.

17)– نفسه ج 16/ 324. وفي روايةٍ: <<أمشركونَ هم؟ قال: لا، من الشرك فرُّوا؛ فقيل: أمنافقون؟ قال: لا لأنَّ المنافقين لا يذكرون الله إلاَّ قليلاً فقيل له: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوْا علينا.>> ج16/ 324.

18)– أنظر: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، للشيخ محمد الحضري، ط2، المكتبة التجارية الكبرى، بمصر، ص13 و14. وأنظر: السيرة النبوية لابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وإبراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي، الطبعة الثالثة 1391هـ / 1971م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج 1/ 209.

19)– الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج 4/ 155.

20)– كَرِهُوا المطلع ولم يكرهوا الطالِعَ.

21)– سيرة ابن هشام، ج 3/ 336 يقول الزهري: << فما فُتِح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه>>. وأنظر: فقه السيرة، للغزالي، ط2، 1408هـ – 1988م، مكتبة رحاب، الجزائر، ص335. وفقه السيرة، للبوطي، دار الشهاب، باتنة – الجزائر، ص321.

22)– حليم آل البيت الإمام الحسن بن علي، للشيخ موسى محمد علي، عالم الكتب، ط2، 1984م، ص 101 و102.

23)– أنظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ط3، 1397 هـ / 1977م، دار الشروق، بيروت، ج 2/ 758.

24)– أنظر: تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى، للإمام الأكبر محمود شلتوت، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط8، 1401هـ / 1981م، ص 219.

25)– الأخوة، لجاسم بن محمد مهلهل الياسين، مطبعة أمزيان، شارع مصطفى بن ابو العيد، الجزائر، ص 59.

26)– الفرق بين النصيحة والتعيير، لابن رجب الحنبلي (795 هـ)، علَّق عليه وخرَّج أحاديثه علي حسن علي عبد الحميد، دار الشهاب، باتنة، ص17.

27)– المصدر نفسه.

28)– تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى، محمود شلتوت، ص221.

29)– بعض هذه المعاني مستلهم من: تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى، محمود شلتوت، ص 224.